مجلة مركز بحوث و دراسات المدينة المنورة

العدد الخامس ربيع الثاني – جمادى الآخرة ١٤٢٤ هـ يونيو – أغسطس ٢٠٠٣ م

- البناء والكراء في سوق المناخة بين المنع والإباحة
- أمراء المدينة المنورة في النصف الأول من العهد العثماني
- الحياة الثقافية في المدينة المنورة في العهد المملوكي
- جماليات المكان ـ العقيق نموذجاً ـ قراءة في شعر شعراء المدينة المعاصرين
- رحلة ابن بطوطة إلى المدينة المنورة

رحلة ابن بطوطة

المسماة : « تحفة النظار في غرائب الأمصار »

لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي

ليلى سعيد سويلم الجهني

محاضرة في كلية التربية للبنات بالمدينة المنورة

مدخل

إن هاجس الترحال والسفر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ؛ والمدينة المنورة لزيارة المسجد النبوي الشريف والسلام على ساكنها عليه أفضل الصلاة والتسليم ، كان الباعث الأساسي خلف عدد غير قليل من الرحلات الشهيرة لمعظم الرحالة المسلمين ، وأشهرهم رحلة ابن بطوطة ، صاحب أشهر رحلة تراثية وأطولها ، والمعروفة باسم (بتحفة النظار في غرائب الأمصار) .

وابن بطوطة هو : أبو عبد الله ، محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي ، رحالة ومؤرخ. ولد ونشأ في طنجة بالمغرب الأقصى. وخرج منها عام ٧٢٥هـ ، فطاف بلاد المغرب والشام والحجاز والعراق وفارس وما وراء النهر وبعض بلاد الهند والصين والجاوة وبلاد التتر وأواسط أفريقية .واتصل بكثير من الملوك والأمراء ، فمدحهم واستعان بهباتهم على أسفاره. عاد إلى المغرب الأقصى ، فانقطع إلى السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين وأقام في بلاده . وقد أملى رحلته على محمد بن جزي الكلبي بمدينة فاس عام ٧٥٦هـ . وترجمت إلى عدد من اللغات منها البرتغالية والفرنسية والإنجليزية . مات في مراكش ، ولقبته جمعية كمبردج في كتبها وأطالسها بأمير الرحالين المسلمين[1] .

الرحلة

خرج ابن بطوطة من طنجة يوم الخميس المصادف للثاني من رجب عام ٧٢٥هـ . وقد انعقدت نيته على الحج والزيارة ثم العودة إلى دياره ، لكن الرحلة امتدت أكثر من تسعة وعشرين

---

(١) انظر : الأعلام ٥/٢٣٥–٢٣٦ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

عاماً زار خلالها معظم الحواضر والمدن في أنحاء متفرقة من العالم المعروف آنئذٍ ، منها إضافة إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة : الإسكندرية ، القاهرة ، القدس ، دمشق ، النجف ، بغداد ، ظفار ، البحرين ، قونية ، القسطنطينية ، سمرقند ، دهلي - وتعرف أيضاً بدلهي - ، جزر ذيبة المهل - وتعرف اليوم بجزر المالديف - جاوة ، الصين ، غرناطة ، مالي ، تنبكتو ، وأخيراً فاس التي استقر بها آخر المقام .

كانت أطول فترة قضاها ابن بطوطة في أي من تلك المدن هي التي قضاها في دهلي حاضرة الهند ؛ إذ ظل فيها حوالي تسعة أعوام ، ولي خلالها القضاء لسلطانها . تلتها مكة المكرمة التي جاور بها ثلاثة أعوام . ثم جزر المالديف التي مكث فيها ما يربو على عام ولي خلاله القضاء بتلك الديار . وأخيراً فاس التي أقام فيها ما يربو على عامين قبل أن يُعاود ترحاله ثم يرجع إليها بطلب من الخليفة أبي عنان المريني[1] الذي رغب إليه في أن يسجل تفاصيل رحلته الطويلة ، وما مر به خلالها من مواقف وأحداث وغرائب . أما المدينة المنورة ، فقد زارها ثلاث مرات خلال ترحاله الطويل ، ومكث فيها - على الإجمال - ما يربو على عشرة أيام .

وقد أملى ابن بطوطة رحلته على ابن جزي[2] فكتبها عام ٧٥٦هـ ، أي بعد عامين من انتهائها . وسيكون لهذا التدوين المتأخر أثر سنشير إليه في حينه .

يغلب على رحلة ابن بطوطة الاهتمام بالنواحي الاجتماعية . ويفيض وصفه بحس اجتماعي ناقد خاصة عندما يتقصى عادات الشعوب التي مر بها مقارناً إياها بعادات المسلمين عامة والمغاربة خاصة . وينطلق في نقده ذاك مما يؤمن به ؛

---

(١) المتوكل على الله فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب المريني ، أبو عنان (٧٢٩ - ٧٥٩ هـ) : من ملوك الدولة المرينية بالمغرب . ولد بفاس الجديدة ، ونشأ محبوباً في قومه لفضله وعلمه . ثار على أبيه وبويع في حياته عام ٧٤٩هـ . احتل تلمسان وانتظم له المغرب الأوسط وانتزع قسنطينة وتونس من أيدي الحفصيين . قتله وزيره الحسن ابن عمر الفودودي خنقاً . كان فارساً شجاعاً وفقيهاً وكاتبا بليغاً وشاعراً . له آثار من مدارس وزوايا ؛ الأعلام : ١٢٧/٥ .

(٢) محمد بن محمد بن أحمد بن جزي الكلبي ، أبو عبد الله (٧٢١ - ٧٥٧ هـ) : شاعر من كتاب الدواوين السلطانية . أندلسي من أهل غرناطة ، ولد بها ، واستكتبه أبو الحجاج يوسف بن الأحمر النصري ، ثم ضربه بالسياط من غير ذنب اقترفه ؛ فانتقل إلى المغرب وأقام بفاس عند ملكها المتوكل على الله أبي عنان المريني وتوفي فيها . له كتاب في [تاريخ غرناطة] ؛ الأعلام : ٣٧/٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

فهو مثلاً يستنكر على نساء جزر ذيبة المهل أن يمشين حاسرات الرؤوس[١] . كما أنه يستنكر على أهل إيوالاتين أن تتخذ المرأة فيهم صاحباً ، ويتخذ الرجل صاحبة جهاراً دون تحرج مع أنهم مسلمون[٢] .

ومما يلفت الانتباه في رحلة ابن بطوطة نزعته الصوفية البيِّنة ، إذ تفيض الرحلة بأخبار المتصوفين والأولياء وخوارقهم وكراماتهم . وإن كنا نتحفظ تجاه كثير مما يورده ، ونرفض قبول بعض ما فيها من أخبار يأبى تصديقها العقل ، فإننا لا نملك أن ننفي أن شغف الرحالة بذكر تلك الأخبار واهتمامه بها طوال رحلته دليل واضح على تدينه وتعلقه بالصالحين في عصره . والحقيقة أن هذا الأمر ينبغي أن يوضع في إطاره الصحيح إذا أردنا الحكم عليه ؛ فنحكم انطلاقاً من ظروف ذلك العصر . إذ عاش ابن بطوطة في عصر شهد توهجاً حاداً في حركات التصوف التي كانت انعكاساً لتفتتٍ سياسي عانته دولة الإسلام آنذاك ؛ حيث كثرت المنازعات والثورات[٣] . ولا يقلل هذا المنزع الصوفي من أهمية الرحلة أبداً ، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن الرحالة كان صارماً - من خلال ما يرد في الرحلة من مواقف - في تطبيق شرع الله والحكم به وإقامة حدوده وفروضه[٤] . والحقيقة أننا سنلحظ غلبة الملمح الصوفي على معظم الرحلات التالية تقريباً بدرجة يبدو معها ابن بطوطة معتدلاً في تصوفه .

من جهة أخرى ، يبدو ابن بطوطة في رحلته شغوفاً بإيراد الغرائب والعجائب. ولعل في تسمية الرحلة بـ :تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ؛دليلاً على مدى ذلك الشغف وعمقه[٥] . وينأى الرحالة عند ذكره لكثير من تلك الغرائب والعجائب عن استخدام صيغة جازمة إلا فيما رآه عياناً ، ويتحرز مستخدماً ألفاظاً مثل : يحكى ، يقال ، يذكر ، سمعت من الثقات وغيرها .

ويظهر من خلال الرحلة أن ابن بطوطة قد انشغل بالشأن السياسي على عكس من سبقه من الرحالة ، فاهتم بتتبع أخبار الولاة والسلاطين والحكام ،

(١) انظر الرحلة : ٥٨٣ .
(٢) انظر الرحلة : ٦٨٨ .
(٣) انظر الرحلة : ١٢ ، ١٠ - ١١ .
(٤) انظر الرحلة : ٢٨٢ ، ٥٩١ - ٥٩٣ .
(٥) انظر الرحلة : ٨٤ - ٨٥ ، ٩٧ - ٩٨ ، ١١٨ ، ١٩٥ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وعمل على لقاء أكثرهم التماساً لعطائهم وكرمهم حتى يستطيع مواصلة رحلته. ورغم ذلك فإنه لم يكن أبداً طالب سلطة أو راغباً في منصب ، إذ لم يتوانَ في بعض المرات عن الانقطاع عن الدنيا ، وملازمة أهل التقوى والصلاح ، والتبرع بكل ما يملكه للفقراء والمساكين[١] .

تكشف لنا الرحلة كذلك عن رقة مشاعر ابن بطوطة وحساسيته المفرطة أحياناً .فعندما وصل إلى تونس في بداية رحلته ، مثلاً ؛ خرج أهلها للقاء الركب ، وأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ، فيما وقف هو وحيداً ؛ إذ لم يكن ثَمَّ من يعرفه . وتحت وطأة إحساسه بالغربة والوحدة استسلم لنوبة من البكاء ، ولم يدارِ دموعه أو ينأَ بها عمن حوله إلى أن تنبه أحد الحاضرين ؛ فأقبل عليه مُسَلِّماً يلاطفه ويؤنسه ويحادثه حتى دخل الركب مدينة تونس[٢] . وتتبدى رقة مشاعر ابن بطوطة وحساسيته في مواقف أخرى متباينة ترد في الرحلة ، منها : استبشاره ببنتٍ ولدت له وهو بإحدى جهات آسيا الوسطى ، حتى أنه يؤكد أنه لم يرَ منذ ولدت إلا كل ما سره وأرضاه[٣] . ومنها كذلك خوفه من العروض التي كان يقدمها السحرة والمشعوذون في بعض مدن الهند والصين ، حتى إن مرافقيه اضطروا في بعض المرات لأن يسقوه دواءً كي يذهب عنه ما يجد[٤] .

تتميز لغة ابن بطوطة بسهولتها ووضوحها ، وله عناية بالسجع ، غير أنها تكاد تنحصر في المقاطع التي يخبر فيها عن دخوله مدينة أو حاضرة من الحواضر[٥] .وفيما عدا ذلك ينساب سرده دون قيود السجع سلساً لا تكلف فيه. وقد حرص خلال رحلته على تعلم بعض لغات الأقوام الذين مر بهم كالتركية والفارسية ؛ ولذا تمتلئ صفحات الرحلة بجمل ومقاطع من تلك اللغات مكتوبة بالحرف العربي . ولا يورد ابن بطوطة كلمة أو جملة إلا وذكر ترجمتها بعدها مباشرة[٦] . ويبدو أن ما دفعه إلى تعلم تلك اللغات رغبته في أن يكون على بينة

(١) انظر الرحلة : ٥٤٠ .
(٢) انظر الرحلة : ٣٤ .
(٣) انظر الرحلة : ٣٨٤ .
(٤) انظر الرحلة : ٦٤١ .
(٥) انظر الرحلة : ٣٩ ، ٤٦ – ٤٨ .
(٦) انظر الرحلة : ٢١٤ ، ٣٢٤ ، ٤٣١ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

من كل ما يقال له ويسمعه ، إضافة إلى حاجته لتلك اللغات في قضاء حاجاته اليومية ، وتسهيل أموره خاصة إذا لم يكن هناك من يتولى الترجمة .

أخيراً ، تعد رحلة ابن بطوطة مؤلفاً فريداً في بابه ؛ نظراً لما تحويه من معلومات ، وأخبار ، وأحداث وقعت له ، أو عاينها ، أو سمع بها خلال ترحاله . وهي في الوقت نفسه صورة ناطقة لما كانت عليه المدن والحواضر التي زارها فيما يتعلق بالنواحي الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية خلال الربع الثاني من القرن الثامن الهجري ؛ خاصة مع اعتنائه بوصف تلك المدن والحواضر ، وعادات سكانها ، وأحوال حكامها ، ومبانيها ، ومساجدها ، ومعابدها .

تفاصيل زيارة ابن بطوطة للمدينة المنورة

زار ابن بطوطة المدينة المنورة خلال ترحاله الذي امتد زهاء ثلاثين عاماً ثلاث مرات . وصلها في المرة الأولى قادماً من الشام عام ٧٢٦هـ . «وما أن دخلها حتى سارع بزيارة الحرم النبوي الشريف والصلاة بالروضة الكريمة بين المنبر والقبر»[١] . ثم توجه للسلام على رسول الله ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . مكث ابن بطوطة في المدينة المنورة هذه المرة أربعة أيام كان يبيت خلالها في الحرم النبوي الشريف . وقد زار عدداً من المشاهد الكريمة في البقيع وأحد ، كما زار مسجد قباء ومساجد الفتح .

غادر ابن بطوطة المدينة المنورة عقب ذلك إلى مكة المكرمة لأداء الحج . ولما انتهى عاد مرة ثانية إلى المدينة المنورة في أواخر عام ٧٢٦هـ ، وظل فيها ستة أيام حرص فيها على الصلاة في الحرم أكثر من أي شيء آخر ، ويبدو أنه كان يبيت فيه أيضاً .

في المرة الأخيرة وصل ابن بطوطة إلى المدينة المنورة قادماً من مكة المكرمة بعد أدائه الحج ، وذلك في أواخر عام ٧٤٩هـ ، أو أوائل عام ٧٥٠هـ . ويرجع هذا الشك إلى أنه لم يعنَ في رحلته بذكر تواريخ دخوله إلى المدن التي مر بها وخروجه منها عناية دقيقة . ولم يذكر كم لبث فيها هذه المرة ، ونعتقد أن

(١) الرحلة : ١٣٥ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تفاصيل زيارته الأخيرة لا تختلف عن تفاصيل الزيارتين السابقتين ، حيث كرَّس معظم وقته للصلاة في الحرم ، وربما خرج لزيارة بعض المشاهد الكريمة .

ويرد كل ما يتعلق بالمدينة المنورة من معلومات في الرحلة في الزيارة الأولى . أما الزيارتان الأخريان فقد اكتفى ابن بطوطة فيهما بالإشارة إلى دخولها ومغادرتها فقط . ونود أن نشير قبل أن ننتقل إلى ما ورد في رحلته عن المدينة المنورة إلى أن الرحالة يعتمد كثيراً على ما ذكره ابن جبير عنها من قبل . بل إنه يورد في بعض مواضع من الرحلة عبارات ابن جبير نفسها مع تغيير طفيف . فعندما يقول ابن جبير مثلاً : « المسجد المبارك مستطيل ، وتحفه من جهاته الأربع بلاطات مستديرة به ، ووسطه كله صحن مفروش بالرمل والحصى »[١] ؛ نجد أن ابن بطوطة يقول : « المسجد المعظم مستطيل ، وتحفه من جهاته الأربع بلاطات دائرة به ، ووسطه صحن مفروش بالرمل والحصى »[٢] . وفي موضع آخر يقول ابن جبير : « وسدنته [الحرم] فتيان أحابيش وصقالب ظِراف الهيئات نظاف الملابس والشارات »[٣] . فيورد ابن بطوطة العبارة نفسها مغيراً في بعض ألفاظها : « وخدام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الأحابيش وسواهم . وهم على هيئات حِسان ، وصور نظاف ، وملابس ظِراف »[٤] .

وينقل ابن بطوطة كذلك في رحلته عن العبدري خاصة فيما أورده الأخير عن بناء الحرم النبوي الشريف . يقول العبدري على سبيل المثال : « قدم رسول الله ﷺ المدينة يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ونزل في بني عمرو بن عوف على كلثوم بن الهدم وأقام عنهم اثنتين وعشرين ليلة وقيل أربع عشرة ليلة وقيل أربعاً وقيل ثلاثاً »[٥] ؛ فيقول ابن بطوطة : « قدم رسول الله ﷺ تسليماً المدينة الشريفة ، دار الهجرة ، يوم الاثنين ، ليلة الثالث عشر من شهر ربيع الأول . فنزل على بني عمرو بن عوف وأقام عنهم ثنتين وعشرين ليلة ، وقيل أربع عشرة ليلة ، وقيل أربع ليالٍ »[٦] .

---

(١) رحلة ابن جبير : ١٦٨ .
(٢) رحلة ابن بطوطة : ١٣٥ .
(٣) رحلة ابن جبير : ١٧١ - ١٧٢ .
(٤) رحلة ابن بطوطة : ١٤١ .
(٥) رحلة العبدري : ٢١٤ .
(٦) رحلة ابن بطوطة : ١٣٦ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وحتى لا نكون متحاملين على ابن بطوطة فإنا نشير إلى أنه ينسب لابن جبير بعض ما ينقله عنه في بعض المواضع ، غير أنه يغفل ذلك في مواضع أخرى عديدة . ولعل مما يفسر اعتماده على ما ورد لدى ابن جبير وبدرجة أقل العبدري أنه - ابن بطوطة - أملى رحلته على ابن جزي عقب انتهائها بعامين ؛ ولما كانت أعوام طويلة قد مرت على زيارته للمدينة المنورة فلا بد أن تكون بعض التفاصيل قد غابت عن ذاكرته مما استلزم رجوعه إلى رحلتي ابن جبير والعبدري . ورغم ما سبق فإن الرحلة لا تخلو من معلومات جديدة لم يسبق مرورها في الرحلات السابقة ، وهذا ما سنشير إليه في حينه .

المدينة المنورة كما تبدو في الرحلة

(٤ - ١) إن ما يصفه ابن بطوطة من المدينة المنورة أقل ؛ في الحقيقة ؛ من أن يساعدنا في تكوين تصور واضح لما كانت عليه . ورغم مرور أعوام طويلة بين رحلة ابن جبير - وهي أول رحلة بدأنا بها - ورحلة ابن بطوطة ، فإنَّا مازلنا نراوح عند صورة المدينة نفسها التي مرت معنا في الرحلات السابقة .

فالمدينة المنورة محاطة بسور ، ولا يشير ابن بطوطة إلى هذا السور صراحة ؛ لكننا نستنتج وجوده من إشارة ضمنية ترد في رحلته يقول فيها : «ويُخرج إليه [البقيع] على باب يُعرَف بباب البقيع»[(١)] . فوجود الباب يدل على أن السور مازال قائماً ؛ خاصة أن الرحالة استخدم لفظة : الخروج لوصف انتقاله لزيارة البقيع . يصف لنا الرحالة ، على صعيد آخر ، شارعاً مُبَلطاً بالحجر المنحوت المفروش يحيط بالحرم . وهو الشارع نفسه الذي وصفه ابن جبير من قبل . كما يشير إلى دار الوضوء التي وردت لأول مرة في رحلة العبدري . ويبدو أن تغيراً لم يلحقها أو يطرأ عليها إذ يتطابق وصفها في الرحلتين . تخلو الرحلة فيما عدا ما سبق من أي إشارة للنواحي العمرانية الأخرى في المدينة . وقد يرجع ذلك إلى أن السلطة حينذاك كانت بيد المماليك الذين انصب اهتمامهم على بناء الحرم النبوي الشريف وتجديده خاصة بعد حريقه الأول عام ٦٥٤هـ[(٢)] . يضاف إلى ذلك أن أمراءها ؛ كما يذكر ابن بطوطة نفسه - انشغلوا بنزاعاتهم على تولي زمام

(١) الرحلة : ١٤٤ .

(٢) انظر المدينة المنورة وتطورها العمراني وتراثها المعماري : ١٦ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الأمر فيها[١] ، وليس مستغرباً أن تحول تلك النزاعات التي بلغت حد القتل كما سنرى لاحقاً بينهم وبين العناية بعمارتها وبنيانها .

(٤ - ٢) أما بالنسبة لمياهها فإن رحلة ابن بطوطة أول رحلة تشير إلى العين الزرقاء التي غاب ذكرها في الرحلات الثلاث السابقة . ويصف لنا الرحالة إحدى سقاياتها الواقعة قرب باب السلام - وهو أحد أبواب الحرم - إذ يُنزل إليها على درج ، وماؤها عذب . وقد كان للعين الزرقاء سقايات كثيرة موزعة على أنحاء المدينة ، غير أنه كما يبدو لم يمر بغير هذه السقاية ، ولعل ذلك لقربها من الحرم . يشير ابن بطوطة كذلك إلى ثلاث آبار كان ابن جبير قد ذكرها في رحلته أولها : بئر أَرِيْس ، التي تقع قرب مسجد قباء . وثانيها : بئر بُضَاعة ، وتقع قرب حجر الزيت داخل نطاق سور المدينة المنورة الخارجي . وآخرها : بئر رُومة التي كانت تقع كذلك خارج نطاق سور المدينة المنورة الخارجي في جهة الغرب .

(٤ - ٣) مما يثير الاستغراب أن يهتم ابن بطوطة في رحلته بتتبع أحوال الناس في كثير من الأمكنة التي مر بها ، ورصد عاداتهم وتقاليدهم ، ومقارنتها بأحوال أهل المغرب وعاداتهم وتقاليدهم ؛ ثُمَّ تخلو رحلته مع ذلك من تفاصيل عن أحوال أهل المدينة المنورة وعاداتهم وتقاليدهم .

ولا نعثر في رحلته إلا على صورة وحيدة ينقلها لنا في زيارته الأولى حيث كان يبيت في الحرم النبوي الشريف . كان الناس كما يذكر يجتمعون في كل ليلة في صحن الحرم حلقاتٍ وقد أوقدت الشموع الكبيرة ، فيقرأ بعضهم القرآن ، ويتذاكر آخرون الله عز وجل ، أو يجلسون مستقبلي الحجرة الشريفة فيما توزع الحُدَاة على كل جانب وهم يرددون المدائح النبوية بأصوات عذبة ، أما الأغنياء من أهل المدينة فنراهم يجودون بصدقات كثيرة على المجاورين والمحتاجين . وتذكرنا هذه الصورة بما سبق أن لمسناه في رحلة ابن جبير من ميل أهل المدينة والمجاورين بها إلى التدين . يزودنا ابن بطوطة بعد ذلك بأخبار عن بعض المجاورين بها تشي بما كانوا عليه من تدين وتقوى . ومن المجاورين الذين ذكرهم :

---

(١) انظر الرحلة : ١٤٣ - ١٤٤ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أبو عبد الله محمد بن محمد الغرناطي الذي جبَّ نفسه مخافة الفتنة عندما راودته عن نفسه امرأة شيخ كان يخدمه . وقد وجده الناس مغشياً عليه فعالجوه حتى برئ ، ثم صار من خدام الحرم ومؤذناً به فرئيساً لمؤذنيه .

أبو العباس أحمد بن محمد بن مرزوق ، وكان كثير العبادة والصوم والصلاة بالحرم النبوي الشريف ، وقد جاور بمكة المكرمة كذلك ، وكان أكثر الناس طوافاً حتى أنه كان يطوف حافي القدمين ظهراً في أيام الصيف التي ترتفع فيها درجات الحرارة ؛ فتغدو الحجارة المفروشة في صحن المطاف كأنها الصفائح المحماة حسب تعبير ابن بطوطة .

سعيد المراكشي الكفيف ، وكان كذلك شيخاً صالحاً عابداً .

أبو مهدي عيسى بن حزرون المكناسي ، وقد جاور كذلك بمكة المكرمة . وخرج إلى جبل حراء ؛ فضلَّ طريقه بين الجبال وظل يمشي حتى تمزقت نعاله ، ثم بعث الله أعرابياً أركبه وعاد به إلى مكة . وقد ظل شهراً لا يستطيع القيام على قدميه لتقرحهما .

أبو محمد الشروي ، وقد جاور كذلك بمكة المكرمة ، وكان يدرس في حرمها كتاب : الشفاء للقاضي عياض ، كما كان يؤم المصلين في صلاة التراويح .

أبو العباس الفاسي ، وهو فقيه ومدرس للمالكية بالمدينة المنورة . وقد خاض أبو العباس هذا يوماً في حديث مع بعض الناس أنكر فيه أن يكون الحسين بن علي رضي الله عنه عَقِب ؛ فرفع كلامه إلى أمير المدينة آنذاك : طفيل بن منصور الحسيني فأراد قتله ، إلا أن ثم من تَدَخَّل فاكتفى بنفيه ، وذُكِر أن طفيلاً بعث من اغتاله فيما بعد .

علي بن حجر الأموي ، وكان من أهل غرناطة ، وقد صحب ابن بطوطة عند قدومه من الشام . وهو كما يصفه فقير صالح رأى عند وصوله إلى المدينة المنورة في منامه قائلاً يقول له : اسمع مني واحفظ عني :

هنيئاً لكم يا زائـــرين ضـريحه ... أمنـتم بـه يـوم المعـاد مـن الـرجس
وصـلتم إلى قـبر الحبيـب بطـيبة ... فطوبى لمن يضحي بطيبة أو يمسي

ولعل أطرف ما في هذين البيتين أنهما وردا من قبل ، وإن اختلفت صيغتهما اختلافاً طفيفاً ، في رحلة السبتي عندما وصف الخزانة التي تقابل الحجرة الشريفة وكان مكتوباً على وجهها :

سعدتم به يا زائـــرين ضريحه أمنتم به يوم المعاد من الرجس
سلمتم وأصبحتم بأكناف طيبة فطوبى لمن يضحي بطيبة أو يمسي

وقد حمل البيتان المعنى نفسه في كلا المرتين . وربما تساءلنا عما إذا كانت الخزانة مازالت موجودة أم لا ؟ وإن كانت لا زالت موجودة ألم يلاحظها ابن بطوطة ، ويرى ما كُتب على وجهها ؟ أم أن الأمر يرجع إلى ما ذكرناه عن اعتماده على رحلتي ابن جبير والعبدري ؟

ولعلنا لاحظنا أن معظم من ذكرهم ابن بطوطة من المجاورين قدموا من المغرب العربي ، وهذا لا ينفي أن يكون هناك آخرون كثر قدموا من جهات أخرى غير أنه لم يذكر إلا الذين التقى بهم وعرف شيئاً من أخبارهم .

(٤ - ٤ - أ) يصف ابن بطوطة الحرم النبوي الشريف ، غير أن وصفه لا يرقى لما وجدناه من دقة وثراء تفاصيل لدى ابن جبير وبدرجة أقل لدى العبدري ، وإن كان يزودنا ؛ في الواقع ؛ بمعلومات لم ترد في أي من الرحلات السابقة .

والحرم كما يصفه مستطيل ، يتوسطه صحن مفروش بالرمل والحصى ، وقد أحاطت به أروقة من جهاته الأربع كلها . أما الحجرة الشريفة فشكلها عجيب لا يتأتى تمثيله ، كما يذكر ، ولعله يقصد أن جدرانها وقد حُرِّفت - كما وصف ابن جبير والعبدري من قبل - بحيث لا يستطيع أحد استقبالها في صلاته . وقد كسيت جدرانها بالرخام الذي علاه تضميخ المسك والطيب فترك عليه آثاراً لطول العهد . ويوجد في الجهة الجنوبية منها مسمار من الفضة يقابل وجهه الكريم ﷺ ، وهناك يقف الناس للسلام عليه ﷺ ، ثم على صاحبيه رضي الله عنهما . ويوجد في شمال الحجرة حوض صغير مُرخَّم ، وفي قبلته ما يشبه المحراب ، يقال إنه كان بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، أو هو قبرها . وقد ورد هذا الخبر نفسه في رحلة ابن جبير وذكرنا في حينه أن فاطمة رضي الله عنها دفنت في البقيع .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يشير ابن بطوطة إلى دفة مطبقة على وجه الأرض في وسط الحرم تقود إلى سرداب له درج يفضي إلى دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه . ومنها كانت عائشة رضي الله عنها تخرج إلى دار أبيها . ويتفق مع ابن جبير على أن الدفة هي خوخة أبي بكر رضي الله عنه التي أمر الرسول ﷺ بإبقائها وسد ما عداها ، وكنا قد علقنا على هذا الخبر عند وروده لدى ابن جبير .

أما إمام الحرم فقد كان وقتها - كما يذكر ابن بطوطة - بهاء الدين بن سلامة . وهو من كبار علماء مصر . وينوب عنه عند غيابه أو مرضه عز الدين الواسطي الذي ينعته بـ « العالم الصالح الزاهد بغية المشايخ »[1] . ولعله كان من واسط بالعراق كما يوحي اسمه .

ويسترسل ابن بطوطة عند ذكره لإمام الحرم في سرد أقاصيص عمن سبقه من الأئمة منهم : سراج الدين عمر المصري الذي ولي قضاء المدينة وإمامة حرمها لفترة امتدت حوالي أربعين عاماً . وأراد سراج الدين هذا الخروج في مرة من المرات إلى مصر فرأى في منامه الرسول ﷺ ثلاث مرات ينهاه عن ذلك ويخبره بدنو أجله ، غير أنه لم ينتهِ وخرج ، فمات بالسويس على مسيرة ثلاثة أيام من مصر . وينم حرص ابن بطوطة على إيراد هذا الخبر وأخبار أخرى غيره عن شغفه بتتبع الغرائب والعجائب الذي أشرنا إليه في موضع سابق .

وكان ينوب عن سراج الدين هذا الفقيه أبو عبد الله محمد بن فرحون الذي التقى ابن بطوطة باثنين من أبنائه إبان زيارته للمدينة المنورة هما : أبو محمد عبد الله وأبو عبد الله محمد . وقد كان الأول منهما مدرس المالكية ونائب الحكم . وأبناء فرحون من مدينة تونس ، ولهم بها حسب وأصالة . وقد تولى القضاء عقب وفاة سراج الدين جمال الدين الأسيوطي الذي كان قاضياً بحصن الكرك ، وهو من أهل مصر .

وأما خدمة الحرم آنذاك فكان يقوم بها فتيان من الأحباش وغيرهم ذوو هيئات حسنة ، وملابس مرتبة ، على قدر كبير من النظافة يرأسهم واحد منهم يُعرَف بـ : شيخ الخدام ، له هيئة الأمراء ، ولعله كان أكبرهم سناً وأقدمهم خدمة .

(١) الرحلة : ١٤٠ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ولهؤلاء الخدم مُرَتَّبات ثابتة تُجلب في كل عام من مصر والشام[١] . وكان رئيس المؤذنين وقتها جمال الدين المطري المنسوب إلى المطرية إحدى قرى مصر . وهو محدث فاضل . وابن بطوطة أول من ذكر أن لمؤذني الحرم النبوي الشريف رئيساً يتولى رعاية شئونهم .

(٤ - ٤ - ب) أما بالنسبة لمساجد المدينة المنورة الأخرى ، فيشير ابن بطوطة في رحلته إلى خمسة هي : مسجد قباء ، ومسجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومسجد سلمان الفارسي رضي الله عنه ، ومسجد الفتح ، ومسجد ذي الحليفة . ولم يزر ابن بطوطة من هذه المساجد كلها عدا مسجدي : قباء وذي الحليفة .

ومسجد قباء ؛ كما يصفه ؛ مربع الشكل ، يتوسطه صحن ، وله مئذنة واحدة طويلة يمكن رؤيتها من مسافة بعيدة . وفي وسط المسجد مَبرَك ناقته ﷺ ، وفي الجهة الجنوبية من صحنه محراب مرتفع على مصطبة ، هو أول موضع ركع فيه النبي ﷺ .

أما مسجد ذي الحليفة فقد أحرم منه للحج . ويقع قرب وادي العقيق على مسافة خمسة أميال من المدينة المنورة ، وإليه ينتهي حد حرمها من تلك الجهة . ولم يصف الرحالة بناء هذا المسجد وما هو عليه .

فيما تتم الإشارة العابرة للمساجد الثلاثة الباقية : مسجد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومسجد سلمان الفارسي رضي الله عنه ، ومسجد الفتح ؛ عن أن ابن بطوطة لم يزر أياً منها ، بل مر بها أو شاهدها من بعيد وهو في طريقه لزيارة قبور شهداء أحد رضي الله عنهم . ويخطئ الرحالة خطأ ابن جبير نفسه حين يورد أن مسجد الفتح سُمي بذلك لنزول سورة الفتح فيه على رسول الله ﷺ . وكنا قد فندنا هذا الخطأ عند وروده في رحلة ابن جبير من قبل .

(٤ - ٥) عني ابن بطوطة ، مثل من سبقه من الرحالة ، بمشاهد المدينة المنورة وآثارها . فخرج لزيارة البقيع ، ووصف عدداً من مشاهده ، وأولها : مشهد

(١) كان السلطان صلاح الدين أول من أرسل أربعة وعشرين خادماً خصياً لخدمة الحرم ، وجعل عليهم شيخاً اسمه بدر الدين الأسدي . وكان هؤلاء بداية فئة الأغوات الذين توالوا على خدمة الحرم . وقد أوقف صلاح الدين قريتي قبالة ونقادة في صعيد مصر ليكون دخلهما رواتب دائمة لهم ولمن يخلفهم ؛ انظر : التاريخ الشامل للمدينة المنورة : ٢ / ١٨٣ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها عمة رسول الله ﷺ . وقبرها أول ما يلقى الخارج من باب البقيع عن يساره . وأمام قبرها قبر إمام المدينة مالك بن أنس ، وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء . وأمامه قبر إبراهيم ابن النبي ﷺ ، وعليه قبة بيضاء . وعن يمين هذه القبة قبر عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، وإزاءه قبر عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه ، وعبد الله بن ذي الجناحين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه . وهناك قبور أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ، يليها قبر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه والحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وعلى قبريهما قبة عالية محكمة ، والقبران مرتفعان عن الأرض متسعان غطتهما ألواح مصفحة بالصُّفر بإتقان . وفي آخر البقيع قبر عثمان بن عفان رضي الله عنه وعليه قبة كبيرة ، وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت أسد رضي الله عنها .

وعلى مسافة من المدينة المنورة يقع قبر سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ومن حوله قبور عدد من الشهداء جنوب جبل أحد حيث دارت معركة أحد . وكان ابن جبير قد أشار في رحلته إلى أن قبر حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في رحبة شمال مسجد بني عليه والشهداء إزاءه ؛ لكن ابن بطوطة لا يذكر شيئاً عن المسجد ، ويبدو من وصفه كما لو كان القبر قائماً دون بناء عليه . وقد يكون المسجد الذي ذكره ابن جبير تهدم .

أما بالنسبة للآثار التي رصدها ابن بطوطة في رحلته فهي نفسها التي وردت في رحلة ابن جبير وأولها دار أبي بكر رضي الله عنه التي تقع قرب الحرم النبوي الشريف . وكنا قد أشرنا من قبل إلى أن هذه الدار قد أدخلت في التوسعة التي أحدثها عمر بن الخطاب رضي الله عنه إبان خلافته ؛ ولا بد أن ابن بطوطة نقل الخبر كما ورد في رحلة ابن جبير دون أن يتحقق من وجود تلك الدار . بجوار دار أبي بكر توجد دار عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثم دار ابنه عبد الله رضي الله عنهما . وإلى شرق الحرم دار إمام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس . ولا يصف ابن بطوطة حال تلك الدور وما آلت إليه ، ولا يذكر إن كانت مسكونة أم خالية .

وهناك مجموعة من دور الصحابة والصحابيات رضي الله عنهم وعنهن التي تقع قرب مسجد قباء منها : دار أبي أيوب الأنصاري ، ودار أبي بكر ، ودار

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

عمر ، ودار فاطمة ، ودار عائشة رضي الله عنهم وعنهن . ونلاحظ أن ابن بطوطة يورد الدور نفسها التي ذكرها ابن جبير من قبل . ويبدو أن الأخبار المتعلقة بتلك الدور ظلت تنتقل من عصر إلى عصر دون تمحيص أو تدقيق . يشير ابن بطوطة كذلك إلى حجر الزيوت الذي يقع داخل حدود سورها الخارجي كما يبدو . إضافة إلى الخندق الذي يقع على شفيره حصن العزاب الذي بناه عمر بن الخطاب . ولا ندري إن كانت تلك الآثار مازالت قائمة وقت زيارة الرحالة أم أنها اندرست ، خاصة أنه يسرد أسماءها ومواقعها دون وصف دقيق لأوضاعها آنذاك .

(٤ - ٦) كان الشأن السياسي واحداً من الأمور التي انشغل بها ابن بطوطة في رحلته . وهو كما ذكرنا من قبل لم يكن طالب سلطة ، أو ساعياً وراء منصب . وكان يسعى إلى لقاء السلاطين والأمراء طالباً عطاءهم ، وراجياً كرمهم في المقام الأول . والحقيقة أن اهتمامه بالسياسة وأهلها من النقاط التي تميز رحلته .

كانت المدينة المنورة عندما زارها في المرة الأولى تحت إمرة كبيش بن منصور بن جماز . وكان كبيش هذا قد قتل عمه مقبلاً ، وقيل إنه توضأ بدمه . فما كان من أبناء القتيل إلا إن ترصدوا كبيشاً حتى ظفروا به في أحد أيام صيف ٧٢٧هـ ، مع ثلة من أصحابه خارج المدينة المنورة فقتلوه ولعقوا دمه .

وينبغي لنا إن أردنا تفهم هذه الحادثة المؤسفة أن نعود إلى عام ٧٠٩هـ ونتعرف على الظروف والملابسات التي تلقت بذرتها ؛ فرعتها وغذتها حتى أنبتت كل هذا الشر . كانت المدينة المنورة بدءاً من العام المذكور قد شهدت فتناً وقلاقل أثرت على أمنها واستقرارها تسبب فيها أمران اثنان أولهما : تنافس أبناء جماز على تولي السلطة فيها ، وآخرهما : سوء تصرف الملك المظفر - السلطان المملوكي في مصر آنذاك - الذي أصدر أمراً سلطانياً يقضي بإشراك طفيل بن جماز في إمارة المدينة مع أميرها في ذلك الوقت أخيه منصور بن جماز . أدى هذا الأمر السلطاني المرتجل إلى غارات وحروب بين الطرفين قُتل فيها طفيل بن جماز ؛ فأثار مقتله بعض أفراد عائلته خاصة ابنه ماجداً الذي لجأ إلى ضواحي المدينة وجمع عدداً من الرجال حوله ، وبدأ في شن غارات مفاجئة نجح في إحداها

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

- عام ٧١٧هـ - في مباغتة منصور بن جماز وكاد أن يأسره لولا أن الأخير نجح في الفرار ، وجمع رجاله ، ثم استعان بعسكر السلطان قلاوون ؛ فكرُّوا على ماجد ومن معه فقتلوه وعدداً من رجاله وهزموا الباقين . عاد منصور بعد ذلك إلى المدينة ، ورغم أنه نجح في ضبط الأمن فيها ، فقد فشل في مداواة ضغائن أبناء أخيه طفيل وأقاربه الآخرين ؛ فظلوا يتحينون فرصة للثأر حتى قتله أحدهم في رمضان عام ٧٢٥هـ . تولى الإمارة بعده ابنه كبيش الذي وقع في الخطأ نفسه ، إذ لم يسعَ إلى تهدئة قلوب أقاربه الموتورة ، بل عمد إلى مطاردة قتلة أبيه وخصومه الآخرين مما زاد في حنقهم[1] ، فما لبث أن قُتل على يد أحدهم كما وصف لنا ابن بطوطة في رحلته .

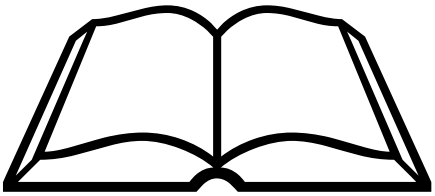

(١) انظر التاريخ الشامل للمدينة المنورة : ٢ / ٢٤٩ - ٢٥٥ .